

بنية المكان في رواية الكافية والوشام لمحمد مفلح، المدينة أمودجا

The Structure of the Place in the Novel El Kafia wa al Wicham by Mohammed

Meflah, The City as Example

عبد القادر دحون¹ / عبد القادر بن عزة²Abdelkadir Dahoun¹ / Abdelkader Benazza²

مخبر تعريب المصطلح للعلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)

Abu Bakr Belkaid University of Tlemcen (Algeria)

dahoun.abdelkader@gmail.com¹ / sehb13@yahoo.fr²

تاريخ النشر: 2026/03/02

تاريخ القبول: 2026/01/07

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

ملخص البحث

يتناول الموضوع البحث في بنية المكان في رواية الكافية والوشام، إذ نحاول من خلال هذه التراسة الوقوف على نظرة الروائي الجزائري محمد مفلح للمدينة من خلال تصويره لها. ليس في طابعها الهندسي الملموس المجرد المادي فحسب، وإنما لاكتسابها -المدينة- بعدا جاليا وفتيا، وذلك أن المكان يعدّ من أهم العناصر الفنية المكوّنة للعمل الروائي، فإذا قلنا بأنه العمود الفقريّ للأعمال الأدبية والفنية فإننا لا نغالي في ذلك، بحيث نلمح تلك الطاقة الحيوية والنشيطّة التي تتدفق وتندفع وتنبعث منه، ما يعكس براعة وتمكّن الروائي من خلال توظيفه وتجسيده في ثنايا روايته.

والمكان الروائي ليس مكانا مألّوفا ومعتادا كالذي اعتدنا العيش فيه، ولكنه مكان تخطلي غير واقعي يتشكّل عن طريق اللغة الروائية، أي أنّه يتواجد عبر اللغة، فيصبح للمؤلّف الحرّية في تشكيل فضائه الروائي. وعن طريق آلية الوصف يقترب من القارئ ليتمّ اكتشافه واكتشاف الجالية المخفية خلفه، بعد عملية الإدراك ومقارنة التصوّرات التخيلية والواقعية.

فالمكان الروائي، له صبغة خاصّة، ونكهة مميزة، وسحر مؤثّر، يفجر في الأديب إحساسا ممتدّا، يؤدّي به إلى اصطناع العاطفة وإخراج الشّعور من ذاك المشهد المكاني المغمور في أعماق ذاكرته، ويبقى هاجسا له المقدرة على شدّ الأديب إلى منبته الأول.

الكلمات المفتاح: رواية، مكان، مدينة، بنية، خيال، متخيّل.

Abstract :

The topic deals with research on the structure of place in the novel Al-Kafiya and Al-Washam. Through this study, we attempt to examine the Algerian novelist Muhammad

* عبد القادر دحون: dahoun.abdelkader@gmail.com

Muflah's view of the city through his depiction of it. Not only in its concrete, abstract, and material geometric character only, but also what it - the city - has acquired an aesthetic and artistic dimension, because the place is considered one of the most important artistic elements that make up the work of fiction. If we say that it is the backbone of literary and artistic works, we will not exaggerate in that-as we glimpse that vital and active energy. Which flows, rushes, and emanates from it, which reflects the ingenuity and mastery of the novelist through his employment and embodiment within the folds of his novel. The fictional place is not a familiar and conventional place like the one we are accustomed to living in, but it is an imaginary, unrealistic place that is shaped by the fictional language; that is, exists through the language, so that the author has the freedom to shape his fictional space. Through the mechanism of description it approaches the reader in order to discover it, and discover the beauty hidden behind it after the process of perception and comparison of imaginative and realistic perceptions. The fictional place has a special character, a distinctive flavor, and an influential charm, which sparks a rebellious feeling in the writer, leading him to fake emotion and extract the feeling from that spatial scene immersed in the depths of his memory, and it remains an obsession that has the ability to draw the writer to his original source.

Keywords: Novel; Place; City; Structure; Imagination; Imaginary.



المقدمة:

يعدّ المكان عنصراً هاماً في العمل الروائي، فهو يشكل الإطار الذي تدور فيه الأحداث، وتسير وفقه الشخصيات، وقد استعمل الروائي محمد مفلح المكان كعنوان لروايته "الكافية والوشام"، فالكافية هي اسم المؤسسة الصناعية التي كان يديرها أحمد معاليش زوج فتيحة والتي اشتهرت بالوشام نسبة لأبيها. وفي دراستنا هذه سنحاول الإجابة عن بعض الجدليات المتعلقة بأذهان الكثير من الباحثين، ومنها:

- أين تكمن جالبية المكان في رواية "الكافية والوشام"؟
- وهل المكان عند محمد مفلح مختلف عن المكان في الروايات الجزائرية؟
- وما المصدر الذي استمد منه الروائي الأمكنة في روايته؟

ولهذه الدراسة اخترنا المزاوجة بين المناهج الآتية: الوصفي والتاريخي وحتى المنهج التقدي والمنهج البنيوي التحليلي. فاستهلينا بحثنا بتوطئة، ثم مفهوم مختصر للمكان، بعدها تطرقنا إلى إشكالية مصطلح المكان، ثم إبراز أهميته، وبعدها خضنا في أنماط المكان في رواية "الكافية والوشام" وركزنا في دراستنا على المدينة.

1- مفهوم المكان:

لكل رواية مكان تقوم فيه الأحداث، وفي هذا الحيز تكبر الشخصيات، إذ تنمو وتتطور داخل المكان، وغنى المكان داخلها ويتلون في شكل مشاعر ومواقف ورؤى بصرية، ورؤى حلمية، وقد ميز البنيويون بين المكان الخارجي، والمكان الروائي.

فالخارجي هو "المكان الحقيقي المتموضع على الخارطة الجغرافية، أطلقت عليه تسميات عدة: (المكان الواقعي، الموضوعي، الطبيعي، المرجعي). ومرجعية هذا المكان تحدّد بالاسم الذي يحمله، ويتميّز به، ويتلّمس الأبعاد والملامح التي يتّصف بها، ومن ثمّ عكسها، وبذلك تصبح وسيلة مساعدة ومعينة لهويته، ولتحديد مظاهر اختلافه عن غيره، ولهذا يمكن الانطلاق من الاسم والملامح الجغرافية لتحديد مرجعية هذا المكان".¹

وحضور المكان في الرواية حتمية لا مناص منها، فقد يختار الكاتب مكانا واحدا لروايته، وقد تتعدّد الأمكنة في نصّ روائي واحد. "فالمكان في الرواية هو نظام دالّ وهو يشكلّ العنصر البنائي الأساسي في توليد الرواية".² لقد صارت الرواية الجديدة، تتخذ من المكان عنصرا أساسيا في بنائها، مما جعل المكان الروائي يتصل بجوهر العمل الفني، فالمكان يعكس القيمة الجمالية للتصّ بتفاعله مع بقية المكونات السردية.

"والمكان يمثل محورا أساسيا من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب، غير أنّه في الآونة الأخيرة، لم يعد مجرد خلفية تقع فيها الأحداث الدرامية، كما لا يعتبر معادلا كنائيا للشخصية الروائية فقط، ولكن أصبح يُنظر إليه على أنّه عنصر شكلي تشكيلي من عناصر العمل الأدبي، هذا بالإضافة إلى أنّه - المكان - كان وما يزال يلعب دورا هاما في تكوين هوية الكيان الجماعي، وفي التعبير على المقومات الثقافية في جميع أنحاء العالم".³

فالمكان السردية يعدّ متخيلا أي معبرا عنه بألفاظ وصيغ وحالات ورؤى وصور خيالية، تتيح مخيلة الروائي للزاوي استكشافه والتعمق فيه، ومن ثمّ رسم حدوده وملامحه.

إنّ المكان لا يظهر في النصّ السردية بمعزل عن العناصر السردية الأخرى بل "إنّ هناك نوع من التلاحم والارتباط الصممي بينه وبين هذه العناصر، وهذا الارتباط يشكلّ في حدّ ذاته لوحة فسيفسائية مشكّلة جاليتا، برعت في إظهارها يد الروائي الفنان".⁴

"فالمكان يعدّ عنصرا مركزيا في تشكيل العمل الروائي، وهو محلّ تبئير لجمال وقائع الرواية، ولحركة الشخصيات وأفعالها وأهوائها ونوازعها وعواطفها وآلامها".⁵

ولا يمكن للمكان أن يرد دون وصف، لأنّ هذا الأخير هو الذي يجعل الفضاء يتبوأ مكانه خاصّة بين العناصر السردية الأخرى.

وقد اختلف الدارسون في تحديد مصطلح المكان، فأطلقوا عليه عدّة تسميات هي: الحيز المكاني، الفضاء، المكان، الإطار، المجال، الموقع، الخلاء.

2- إشكالية المصطلح:

المكان في مفهومه العامّ هو الحيز والفضاء، يقول عبد الملك مرتاض: "لقد خضنا في أمر هذا المفهوم وأطلقنا عليه مصطلح الحيز مقابلا للمصطلحين الفرنسي والانجليزي espace, space ...، ولعلّ ما يمكن إعادة ذكره هنا أنّ مصطلح الفضاء من الصّورة أن يكون معناه جاريا في الهواء والفراغ، وعلى حين أنّ المكان نريد أن ننقله في العمل الروائي على مفهوم الحيز الجغرافي وحده".⁶

ومن كلام عبد الملك مرتاض نجد أن الاختلاف الحاصل في إشكالية تحديد المصطلح بدأ في التقدير الغربي الكلاسيكي ثم انتقل إلى التقدير العربي الحديث، ولذلك وجب التدقيق في مفهوم المكان، "المصطلحات الثلاثة: المكان - الفضاء - والحيز هي الأكثر تداولاً دون غيرها عند الكثير من التقاد والدارسين المحدثين الذين استعملوها في بعض الدراسات المتزادات".⁷

فهناك من الدارسين من لا يكاد يفرق بين مصطلحي المكان والفضاء، إلّا أنّنا نجد أنّ الناقد المغربي حميد لمحيدي يقول: "لم نصادف ضمن الأبحاث التي اطلعنا عليها دراسة تميّز بشكل دقيق بين الفضاء والمكان ويبدو أنّ التمييز ضروري".⁸

وهذا ما يؤكده عبد الملك مرتاض في قوله بأنّ مصطلح الفضاء عامّ جداً وقد تسرّب إلى أكثر من حقل معرفي فاصطنع فيه.

فمصطلح الفضاء أشمل وأوسع من المكان، ولهذا نجد أنّ الدارسين يستعملون مصطلح "المكان" بدلا من "الفضاء". كما نجد أنّ الدارسين قد ميّزوا بين المكان الروائي، والفضاء الروائي، فأطلقوا مصطلح (الفضاء الروائي) على مجموع الأماكن الروائية التي تمّ بناؤها في النصّ الروائي: "إنّ مجموع هذه الأمكنة هو ما يبدو منطقياً أن نطلق عليه اسم فضاء الرواية، لأنّ الفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان، والمكان بهذا المعنى هو مكّون الفضاء، وبفضل سمة الاتّساع هذه يشمل الفضاء الروائي العلاقات القائمة بين الأماكن التي اندرجت في رحابه والعلاقات بين الحوادث التي تجري فيها".⁹

3- أهمية المكان:

تنبثق أهمية دراسة المكان في الرواية من كونها مرشداً إلى نماذج أكثر دلالة على الحياة، وإسهاما في تطوير الإبداع الروائي، "فالمكان يحتلّ حيزاً كبيراً وهاماً في الرواية العربية، ذلك أنّه لا أحداث ولا شخصيات يمكن أن تلعب أدوارها في الفراغ، ودون مكان، ومن هنا تأتي أهمية المكان ليس كخلفية للأحداث فحسب، بل وكعنصر حكاية قائم بذاته، إلى جانب العناصر الفنية الأخرى المكوّنة للرواية".¹⁰

فالمكان يتحوّل في بعض الأعمال المميّزة إلى فضاء يحتوي كلّ عناصر الخطاب السردي، باعتباره المساحة التي تجسّد وعي الروائي ووجهة نظره من جهة، ومن جهة أخرى لأنّه يعدّ الإطار الذي تتجسّد داخله الصيغة البنائية التي يوافقها الخطاب في سير أحداثه.

وهو بذلك يتجاوز كونه مجرد خلفية تقع فيها الأحداث لأنه العنصر الغالب فيها ولا يمكن الاستغناء عنه لأنه محور الأساس.

فعلامة المكان بالحدث الروائي علاقة تلازم، أي أنّ "الصلة بين المكان والأحداث تلازمية إذ لا نتصور التظنر إلى الأحداث بمعزل عن الأمكنة التي تدور فيها، ... وانطلاقاً من تحديد العلاقة بين هذين العنصرين يمكن الوصول إلى فعل الشخصيات من حيث الدلالة على تطوّر الحكاية بين البداية والنهاية، وهكذا تتشابك الأجزاء لتعرض علينا وحدة النص".¹¹

4- أنماط المكان في رواية الكافية والوشام لمحمد مفلح:

1.4- من هو محمد مفلح؟

هو "روائي وقاصّ وباحث في التاريخ، من مواليد الثامن والعشرين من شهر ديسمبر ألف وتسعمائة وثلاثة وخمسين، بولاية غليزان، صدرت له: خمس عشرة رواية، ثلاث مجاميع قصصية، سبع قصص للأطفال، وثمانية أبحاث في التاريخ والتراث".¹²

2.4- أعماله الروائية:

أنجز العديد من الأعمال الإبداعية والأبحاث التاريخية والتمثيليات الإذاعية والمقالات الأدبية، نذكر منها:

1- "الانفجار، مجلّة (آمال) ط1، سنة 1983، المؤسسة الوطنية للكتاب (م. و. ك) ط2، 1984، نالت الجائزة الثانية في الذكرى العشرين لاستقلال الجزائر (سنة 1982). ترجمت إلى اللغة الفرنسية، وصدرت عن منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، سنة 2002.

2- بيت الحمراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

3- زمن العشق والأخطار، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

4- هموم الزمن الفلاقي، مجلّة الوحدة، ط1، 1984. نالت الجائزة الأولى في مسابقة الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة (سنة 1984). وصدرت عن المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، 1986.¹³

6- "الانهيار، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

7- خيرة والجبال، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.

8- الكافية والوشام، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، سنة 2002، ودار المعرفة، الجزائر، ط2، 2009.

9- الوسواس الغريبة، دار الحكمة، 2005.

10- (روايات محمد مفلح: الأعمال غير الكاملة)، وتضم ست روايات هي: الانهيار، بيت الحمراء، هموم الزمن الفلاقي، زمن العشق والأخطار، الانفجار، خيرة والجبال. صدرت بطبعة 1 سنة 2007، عن دار الحكمة في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية، وصدرت بطبعة ثانية سنة 2012 عن الدار نفسها.

11- عائلة من حجار، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط1، 2008.

12- شعلة المائدة، دار طليطلة، ط1، سنة 2010.

13- انكسار، دار طليطلة، ط1، سنة 2010.

14- هوامش الرحلة الأخيرة، دار الكتب، ط1، سنة 2012.

15- سفاية الموسم (التروب المتقاطعة)، دار الكتب، ط1، سنة 2013.

16- همس الزمادي، دار الكتب، ط1، سنة 2013.

17- (شعلة المائدة وأعمال أخرى)، وتضم أربع روايات منشورة هي: شعلة المائدة، انكسار، عائلة من حُار،

وهوامش الرحلة الأخيرة"، دار إيدكوم للنشر والتوزيع، سنة 2013.

18- سفر السالكين، دار الكوثر، ط1، سنة 2014. (مفلّاح، في تجربة الكتابة، 2015) "14.

5- أقسام الرواية:

تتوزع الرواية على عشرة أقسام، استطاع فيها الروائي محمد مفلّاح أن يحول عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن مواقف وتصوّرات، من خلال تلك الثنائية الصّدية التي اعتمدها مكوّننا بها فضاء روائيا شاملا. تتوزع بين أمكنة واقعية، وأمكنة مجازية، وذلك من خلال تحويله لبعض العناصر الثابتة إلى دلالة سياسية، وتاريخية، واجتماعية. وقد نوع الكاتب في الأمكنة، فإذا أردنا تقسيمها حسب المغلق والمفتوح منها، وجدنا ما يلي:

1.5- الأماكن المغلقة:

وهي الأماكن التي تتصف بالحدودية، إما أن تكون لهذه الأماكن علاقة خاصّة بالشخصية، أو أماكن عامّة تشترك فيها عدّة شخصيات. ونجد أنّ الروائي محمد مفلّاح قد جعل (الفضاء الروائي) عنصرا هاما في بناء التّماذج الاجتماعية والثقافية، يوضّح ذلك من خلال التقابل بين الطبقات (العليا) و(الدنيا)، (الأعلى / الأسفل)، وقد نوع محمد مفلّاح في اختياره الأماكن المغلقة: (البيت / الفيلا)، المؤسسة، المقهى، المكاتب العامة، الحمامات، الذّاكين، المدرسة، المسجد، السجن، الغرفة، العمارات، الشّقق، الإدارات، الصّالة، المطعم، المخزن، الفنادق، المسرح، القطار، المحلّات، معهد التّكوين المهني، قاعة المداولات، المستشفى.

وبالرغم من أنّ مفلّاح قد نوع من الأمكنة في روايته "الكافية الوشام" إلّا أنّنا نجده قد ركّز في روايته أكثر بذكره لفيلا التّوّارة التي كان يعيش فيها أحمد معاليش رفقة زوجته فتيحة، ومؤسسة الكافية التي كان يمضي جلّ وقته بها. ونرى أنّ هذين المكنين يمثلان محور الرواية. كما نجد أنّ مفلّاح قد تناول معظم الأمكنة بوصف دقيق رسمه بوساطة اللغة، الغرض منه خلق فضاء روائي.

2.5- الأماكن المفتوحة:

ونقصد بها تلك الأماكن الواسعة التي غالبا ما تكون طبيعية أو منفتحة على الطبيعة، وتختلف هذه الأماكن في شكلها وفي طبيعتها وحتى في أنواعها، فالمدينة غير القرية، ولكلّ ميزاتها ودلالاتها بالنسبة للشخصية.

ونجد أنّ المكان المفتوح له دور هامّ في روايات مفلّاح عامّة، وأخصّ منها رواية: "الكافية والوشام" والتي وظّف فيها: مدينة الجزائر العاصمة، مدينة غليزان، مدينة زمّورة، مدينة وهران، كما تطرّق لبعض الشّوارع والأحياء في هذه المدن، كالأحياء الشعبيّة والزّاقية، وحي العمارات الزّماوية المعروف ب: (التيانسي)، حي (القراية)، حي (الزّمان)، حي

(الانتصار)، حي (الجامع)، حي (الرق العتيق)، حي (الطوب)، حي (الفيلات الهادي)، الحي الشعبي، الشارع، الأسواق، ساحات المدينة، ساحة السوق السوداء، حدائق وهران، ساحة الشهداء، ساحة بور السعيد، شارع زيروت يوسف، شارع باب عزّون، الأزقة، البحر، الساحات العمومية، الجهة الشمالية، الجنوب، الساحة الرئيسية للمدينة، النهج الصّيق المهادي للمنتقى طرق سوق السوداء.

والمكان الروائي يستحقّ كغيره من مكونات السرد وجوده في رواية محمد مفلّاح "الكافية والوشام" وهذا انطلاقاً من اللغة التي تجعله مكاناً لفظياً لا مادياً، أي الأماكن التي نعرفها بالتّظن. إنّ وجود المكان ذهني ومتخيّل، وهذا طبعاً يرجع إلى عبقرية الروائي في خلق مكان يكاد يكون واقعياً، فيتفاعل المتلقّي أو القارئ معه، وقد يحبّه أو ينفر منه، أو يتمتّاه حقيقة. وربّما يرجع هذا إلى استعمال الروائي محمد مفلّاح للوصف، فبالوصف تتحدّد معالم المكان وتتّضح، وبه تتحقّق مصداقيته وواقعيته لدى القارئ.

"إنّ الروائي حين يصف أمكنة حقيقية، فإنّه يجعل القارئ (يثق) أكثر بالقصة ... هكذا يؤدّي تحديد المكان دور الإيهام بالواقع، حين يصوّر أماكن واقعية"¹⁵

6- المدينة في رواية "الكافية والوشام":

يرسم لنا الروائي محمد مفلّاح المدينة في رواية: "الكافية والوشام" ككلّ المدن الداخليّة في الجزائر، تتوقّر على ضروريّات الحياة، وبعض كالياتها، نجد بها كلّ ما قد سبق ذكره في الأماكن المغلقة وحتى المفتوحة. ولأنّ الرواية تعبير فنيّ عن الواقع، نجدها تدفع بالروائي إلى التعبير عن المدينة حسب وجهة نظره، ونجد أنّ الروائي محمد مفلّاح يكتب عن المدينة التي يعرفها، مدينة غليزان والتي تعدّ مسقط رأسه، فيجسّد من خلالها رؤيته الخاصّة. والروائي قد انطلق في أوّل الحكّي في روايته الكافية والوشام بالمدينة. مع أنّه تجنّب تسميتها، ليعبث في القارئ الفضول منذ البداية لمواصلة قراءته للرواية.

إذ تكتسي المدينة في الرواية أهمية كبيرة، باعتبارها فضاء رحباً على قدر من التّنوع، وتكشف الرواية عن حركة المدينة التي تشهدها مختلف أحيائها وأزقتها، وشوارعها، وساحاتها: "حرارة اليوم لا تبشّر بخير والمدينة كعادتها تنتظر بلا أمل سنوات ممطرة لا يخرج فيها الناس من بيوتهم، وقد ترغمهم على قضاء أوقات ممتعة مع أفراد أسرهم في زمن انشغل كلّ شخص بهومومه الخاصّة"¹⁶

نلاحظ هنا تعلق الشخصية بالمكان، يتجلّى ذلك من خلال الوصف الذي قدّمه لمدينته، فبالرغم من كلّ المتاعب والآلام التي يعانيها فهو يقضي أوقاتاً ممتعة مع العائلة فيها.

وبذلك نجد أنّ المدينة استقطبت نظر الكاتب. والجدول الآتي يلخّص صورة المدينة في رواية "الكافية والوشام":

40	على جانب الطريق الوطني رقم أربعة المؤدي إلى الجزائر العاصمة.	
42	... لمغادرة التّوار، حزم أمتعته البسيطة بعدما باع بقرة وخمس نعاج ونزل إلى مدينة غليزان.	
45	لقد قرر أن يكون رجلا محابا في مدينته	
49	ما يقلقه أكثر ويحرق أعصابه هو أن يعرف سكّان المدينة هذا السّر اللّعين.	
50	كانت مريم تطلّ كلّ صباح على الأطفال وهم يلعبون بكرة القدم كما كانت تراقب حركات المازة والحارات اللّآني تقصّد الحمامات ومحلات وسط المدينة.	03
58	سمعت زوجها يردّد بأنّ المرحلة معقّدة للغاية وقد تبتلعه إذا لم يكتف نشاطه على مستوى الجزائر العاصمة.	
62	عاد من العاصمة محمّوما أكثر	
66	...ثم غادر المدينة وسمع أحد معاليش أنّه استقرّ بمدينة وهران وأصبح محاميا بجي سيدي الوّاري.	04
67	بعد عودته من العاصمة وجد الفوضى قد عمّت ...	
73	لقد ابتعد عن كلّ رجال السياسة وخاصة عن معارفه وأصدقائه الذين انطلقوا إلى الأحزاب وبرزوا كقياديين بالمدينة أو الولاية.	
75	ثم جرى نحو سيّارته وهو يقول في نفسه أنّ المعركة سيحسمها في العاصمة.	05
81	إقالة زوجها من منصبه سيعرّضها لسخرية سكّان الحي وكلّ نساء المدينة.	
82	رأى فتحة تحثّ الخطى نحو وسط المدينة ...	
83	في مدينة الجزائر البهجة التي تحتضن كلّ هموم الوطن ...	06
	في أعماق الجزائر العاصمة، أسرار لا يعلمها إلا من أحبّ الوطن ...	
	أيّام ثلاثة قضاها أحمد معاليش بين المؤسّسات والإدارات وفي شوارع العاصمة.	
84	مثل هذا الخبر ستشيعه الألسنة الحادّة في أرجاء المدينة كلها.	
	فكر في بيع أملاكه ومغادرة المدينة كما فكر في الاستقرار بمستغانم أو وهران، ودار في غرفته وهو يبحث عن سبب هزيمته المفاجئة في العاصمة ...	
85	في هذه المدينة الضّاحية، لم يجد من يساعده على مواجهة القضية التي أصبحت تعرف بملفّ (الكافية).	
	بالأمس كان قويا ومحبويا يرحّب به في كلّ مكان واليوم شعر بأنّه غير مرغوب فيه	

	وأرجع ذلك إلى التحوّلات التي أدخلت البلاد في دوامة الاضطرابات وإلى صعوبة الحياة والمعاملة في مدينة الجزائر العاصمة ...	
86	مدينة الجزائر العاصمة رغم صدرها الزحّب لم تستطع أن تخفي قلقها الذي انعكس على مناطق البلاد.	
89	وقضى الليل كله متقلّباً في سريره أو واقفاً أمام النافذة المطلة على خليج الجزائر ...	
90	... أنّ القطار سينطلق في نَجْمِه وهران.	
92	عربات القطار لا تختلف كثيراً عن المقاهي المنتشرة في المدن الجزائرية	
	وصل محطة المدينة على الساعة العاشرة صباحاً.	
93	لقد اندلعت أحداث أليمة في العاصمة ... الناس يخشون أن تنتقل إلى المدينة.	
99	نصحتها أمّها بالعودة إلى الفيلا ومناقشة زوجها في قرار الطلاق الذي اتّخذ بعد عودته من العاصمة ...	07
101	بعد عودته من العاصمة لم يعد أحمد معاليش مستعدّاً للحياة معها.	
105	احيدة الرّفاق، أحدث في المدينة ضجة كبيرة ...	
107	شمس هذا اليوم الحارّ لا تبثّر بخير والمدينة كعادتها تنتظر معجزة تنشلها من دوامة التوتّرات السياسية ...	08
108	... وفر للعقال والتقايين كلّ الوسائل الكفيلة لحماية المؤسسة التي لم تتعرّض للتخريب لبعدها عن مركز المدينة.	
122	أنا في حاجة إلى شاحنات الكافية لنقل سلعتي من ميناء مستغانم فقط.	09
	في ساء المدينة الضّافية مرّت أسراب من الطيور البيضاء ...	
129	... تأتي من الجهة الشّالية وتستقرّ في أماكن اللّقالق التي اخفت من المدينة ولكن تلك الطيور الجميلة الشّبية بأحلام العذارى، سبحت في ساء المدينة متّجهة نحو الجنوب ...	10
130	كانت فتيحة في السّاحة الرئيسيّة للمدينة ...	

7- تعليق:

فبالرغم من أنّ التروائي لم يُعرِ الطبيعة اهتماماً كبيراً، ونجده ركّز على الأمكنة المفتوحة والمغلقة دون وصف للطبيعة في هذه الأمكنة، إلّا أنّنا نجده يستهلّ روايته (الكافية والوشام) بـ (حرارة)، والتي هي رمز له عدّة دلالات، وهي في الوقت

نفسه تدلّ على حرارة الجوّ بالمنطقة (غليزان المعروفة بحرارتها)، يصل جملة (حرارة اليوم لا تبشّر بخير) بالمكان (والمدينة كعادتها ...)، وكأنّه يريد للمكان أن يساير الحدث، ويستقطب الزمن الماضي والحاضر، زمن اللا استقرار (السياسي والاجتماعي والثقافي).

ففي القسم الأول من الرواية (الكافية والوشام) جعل المدينة في بداية السرد، مع أنّه لم يوضح للقارئ عن أيّ مدينة يتحدث، علّه بذلك يريد أن يبنه القارئ أنّ المدن الجزائرية كلّها تتشابه، خاصّة في تلك الفترة الحساسة "أصبح الجفاف العنيد شبحا مخيفا في مرحلة ولدت فيها أحزاب كثيرة مختلفة البرامج والمشاريع وأصبحت الخطب الحماسية تُردّد في كلّ مكان، في المقاهي والأسواق، وساحات المدينة، وكأنّها العلاج السحريّ لأزمات أفرزها واقع معقّد دَوّخ كلّ المهتمين بالمجتمع والسياسة"¹⁷، أو ليثير إحساس القارئ بالمواطنة والالتواء، فتلك التغيرات الاجتماعية والسياسية شملت كلّ البلاد.

فالزوّائي محمد مفلح يصنع لوحة فنيّة بوساطة اللّغة، الجفاف لا يتوقّف فقط في الجوّ الحارّ وفلّة الأمطار، وإنّما في جفاف تلك الفترة التي اتّسمت فيها البلاد بن الدّلّ والمهانة والتهميش، والطبقيّة وما إلى غير ذلك، ومع ذلك نجد الزوّائي يأمل في العلاج السحريّ كما ذكر، والذي يرى مصدره: المقاهي والأسواق وساحات المدينة وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على أنّ الزوّائي محمد مفلح يرى أنّ الحلّ بيد الشعب، فهو يستبشر خيرا في حلّ لهذا الوضع الذي يسوده الغموض.

نرى أنّ الزوّائي استطاع أن يحسّد الأبعاد بفضل الفضاء الزوّائي الذي يصبح فيها دالّا ومدلولا، فتارةً نلمس اليأس وخيبة الأمل التي انتابت الزوّائي، يمثل لذلك في صورة فنيّة وما فنيّة إلا صورة من صور المرأة الجزائرية التي عاشت الحرمان والمعاناة "أخلف الوعد. لقد سافر زوجها في مهمّة إلى الجزائر العاصمة ولن يرجع إلا بعد أسبوع أو أكثر. تمّت لو كان أحميدة أمامها فتحدّثه عن رغبتها الجنونيّة في قتل زوجها ثمّ تطلعه بتفاصيل الخطّة المحكمة التي أعدتها لتنفيذ الجريمة. هل سيأتي كما طلبت منه ولو متأخرا؟"¹⁸

والبعد الدّاتيّ الذي مثله أحميدة الرّفاف الرّجل الحاقد والأناتيّ الذي شحن بفاعليّة الأنا الذي مزج بين الماضي والحاضر واستغلّ الفرصة، وكان بالنسبة لفتيحة الحلّ الوحيد الذي سيخرجها من معاناتها.

"منذ بداية أحداث أكتوبر 1988، تغيّر مزاج زوجها، أصبح عصبيّا، شعر أنّ أيّامه لن تكون هادئة. لامته يوما على إدمانه الخمر في حانة (الديك الزّوي) مع أشخاص مشبوهين. ظلّ أنّها تشير بالتمليح إلى ضعفه وعقمه وشبهة الشذوذ التي أشاعها عنه عابد العكري فسبّها وأسمعها ما جرح كرامتها. قال لها بأنّها فاسقة وابنة امرأة ساقطة وهو الذي أنقذها من بيت السوء ومخالب الحرمان وصعاليك المدينة"¹⁹، وكأّن الزوّائي محمد مفلح يلخص ما يجري في المدينة أو الوطن بحياة الإنسان الجزائري، والعنف الذي نتج عن فترة تلك أحداث أكتوبر 1988. الفترة كانت جدّ صعبة، وهي فترة انتقال البلاد من الاستعمار للاستقلال، والسبب الرئيسي لهذه الأحداث كان الوضع المعيشي المتردّي، والبيروقراطية، والاقتصاد المنهار. الفترة التي خرج فيها الشعب الجزائري للشارع في احتجاجات عارمة عمّت الولاية الجزائرية. وكانت إثرها الحصيلة كارثيّة.

فالزوّائي يعطي المكان أهمية خاصّة بحيث أنّ طبيعة الحدث وهويّة الشخّصيّة تتحدّد في المؤسسة (الكافية) وفي المدينة (غليزان)، وبقيّة المدن التي ذكرها محمد مفلح في روايته.

في القسم الثاني من الرواية نجد أنّ هندسة المدينة أو المكان قد تغيّرت: "في حيّ العمارات الرمادية الجديد الذي لم تُعبّد أنْهَجْه ولا الطرق المؤدّية إليه، دبّ القلق بين السّكان الذين ألفوا الحياة الصّاحبة في أحيائهم الشعبيّة السابقة، وفيهم من فكّر في بيع (مفتاح الشّقة) والعودة إلى بيته القديم. فالحيّ الجديد لا توجد فيه مقاهي ولا حمامات ولا دكاكين ولا مدرسة ولا مسجد وهذا ما دفع بعض السّكان إلى كتابة الشّكاوى وإرسالها إلى السلطات المحليّة".²⁰

تسارعت الأحداث فهذه فتية تريد قتل زوجها، وهذا احميدة الرّفاف الذي استغلّ الفرصة وأراد الانتقام من فتية، وفي الوقت نفسه يعتلي كرسيّ مؤسّسة الكافية، وأحمد معاليش الذي أصرّ على البقاء رئيسا للكافية، ومحمد الرّاشدي الذي فتح الأبواب أمام الرّفاف واستغلّ مركزه ليخوض الانتخابات وليواصل في أعماله المشبوهة. فترة تعدّدت فيها الأحزاب فأتتجت صراعات حادة في المدينة.

وتتوالى الأمكنة عبر أقسام الرواية، وما لاحظناه أنّ مدينة الجزائر العاصمة تختلف عن بقية المدن، فالزوّائي جعلها مركزا لنوي التّفوذ والسطوة "في مدينة الجزائر البهجة التي تحتضن كلّ هموم الوطن بخنوّ وصبر، تجري أحداث هامّة لا تغطّي التّفزّة والجرائد إلّا جزءا ضئيلا منها وإذا لم يتفرّج الرّائر على أخبار التّفزّة ولم يقرأ الجرائد اليوميّة، فإنّه يظنّ نفسه في جزيرة هادئة خاصّة إذا كان الشّخص مقيما في أحد فنادقها. في أعماق الجزائر العاصمة، أسرار لا يعلمها إلّا من أحبّ الوطن وتاريخه الموشوم في عيون التّاس البسطاء الذين يرفضون الخضوع لأشخاص همهم الوحيد جمع المال وبناء الفيلات وكسب السيّارات. أيّام ثلاثة قضاها أحمد معاليش بين المؤسّسات والإدارات وفي شوارع العاصمة وأنهجها. كان قلّقا على مستقبله وسمعتة التي لطّختها زوجته...".²¹

"وهو يبحث عن سبب هزمته المفاجئة، في العاصمة اكتشف بأنّه وحيد وغريب وعرف أنّ احميدة يدعمه رجال أقوياء ومن بينهم محمد الرّاشدي. في هذه المدينة الصّاحبة، لم يجد من يساعده على مواجهة القضيّة التي أصبحت تعرف بملفّ (الكافية)".²²

"بالأمس كان قويّا ومحبوبا يرحّب به في كلّ مكان واليوم شعر بأنّه غير مرغوب فيه وأرجع ذلك إلى التّحوّلات التي أدخلت البلاد في دوّامة الاضطرابات وإلى صعوبة الحياة والمعاملة في الجزائر العاصمة ولكنّه لا يريد أن يكون منبوذا ولا يحبّ أن يصبح من ضحايا الدّوامة التي لا يقوى على الثّبات أمامها إلّا أصحاب القوّة والتّفوذ".²³

إنّ توظيف الكاتب للمدينة يكشف عن حالة الشّخصيّة وما ينتابها من قلق وتوتر. حيث يسرد لنا الرّوائي قلق كلّ من أحمد معاليش الذي يخاف أن يفقد منصبه ويفقد الكافية وفيلّا التّوّارة، كما يصرّو لنا الواقع الذي آلت إليه فتية في مواجهة مشاكلها ومحاولة قتلها لزوجها وتهديدات احميدة الرّفاف لها، والرّاشدي.

ومن جهة أخرى يصرّو لنا الرّوائي محمد مفلح المكان (مدينة الجزائر) ببيجا، لأنّه لا يزال متعلّق بتلك الصّورة القديمة لهذه المدينة، فبالرّغم من كلّ المشاكل والهموم والأحداث التي طبعت المكان مؤخّرا إلّا أنّ حبّ مفلح للجزائر العاصمة دائم، وذلك لأنّه واع بما يجري وأنّه يعلم أنّ المتسبّب في تشويه صورة المدينة هم شرذمة من أبناء الجزائر الذين يسعون وراء الجاه والمناصب والمال ويلهثون لأموال دنيويّة زائلة. ويعلم أيضا أنّ هناك من يعرف قيمة هذا الوطن الحبيب، وهم فئة من الشعب البسيط الصّامد الباقي على العهد. وأنّ الأمل موجود نحو التّغيير، "وتذكّروا الرّعيم ومواقفه البطوليّة وعباراته

المشهورة: (لقد قررنا). الله يرحم الشهداء والزعماء وأبطال الجزائر، يقولها كلّ مواطن مخلص للدولة التي ضحّى عليها الأجداد".²⁴

ومن أمثلة ذلك يأتي لنا بشخصية: مقداد السويدي: "لم ينس اليوم الذي قال فيه لمقداد السويدي: (سأستحقك كالبعوضة). وكتب مقداد عدّة تقارير اتهم فيها المدير بإخفاء وسرقة قطع الغيار دون القيام بالإجراءات المطلوبة ...".²⁵

الرجل الذي فصل من عمله ظلما من طرف أحمد معاليش وأتباعه. "عاد مقداد السويدي إلى نشاطه التقائي، حاول احميدة استمالة إلى صفّه ولم يفلح، وعده بترقية مهمّة ولم يقبل مقداد بل لم يلتزم الصمت كما كان يتميّز احميدة الرّفاف، وأصبح ينتقده في كلّ مكان مردّدا أمام العمّال أنّ الكافية لا يمكن أن يسيّرّها رجل أمّي لا يعرف ما معنى اقتصاد السوق".²⁶

"انقبض صدر احميدة حين صبّ مقداد السويدي جام غضبه على الأشخاص الذين يعملون على ضرب وحدة العمّال وتصفية الكافية، ودعا العمّال إلى الوحدة والالتفاف حول الاتحاد العام للعمّال الجزائريين لمواجهة هوة السياسة السياسية ودعاة الليبرالية المتوخشة وأشار إلى من يحاولون غلق مؤسسة الكافية العمومية ويطعمون في شراها بالتينار التزمزي وختم كلمته الحماسية بأنّ العمّال متحدون ضدّ كلّ من يفكر في تدمير مصدر قوتهم الشريف ثمّ فسح المجال للمناقشة وكانت تدخلات العمّال الحماسية تدعو إلى إنقاذ المؤسسة قبل فوات الأوان كما أصرتوا على انتخاب ممثليهم في النقابة. التفت جلّ العمّال إلى مقداد السويدي الذي هزّ رأسه مبتسما وانتظر أن يسمح له المشرف بالتدخل ...".²⁷

فالأحداث تحوّلت وانقلب كلّ شيء، ها هو أحمد معاليش مالك فيلا الثّورة ومدير مؤسسة الكافية بولاية غليزان، يخرج منها مهزوما، محطّما، حيث ضاق المكان حوله وضافت به مدينة غليزان، إنّه مكان لا يوجد حيّز فيه للضعيف. وها هو مقداد السويدي بعدما طرد ظلما من المؤسسة، يعود إليها محبوبا، وها هو ذا احميدة يحصل على عمل وسكن رغم تصرّفات الطّائفة والأنانية، وفتيحة الوشام تعود لمدينتها التي طالما احتقرتها، ومع ذلك تتحصّل هي الأخرى على منصب عمل رغم تدني مستواها وتوقفها في الإعدادي. ومن ناحية أخرى نجد رغم كرم مدينة غليزان ومؤسسة الكافية إلّا أنّ جلّ السكّان بها يتوقون للعيش بالمدن المنفتحة كالجزائر العاصمة وهران ومستغانم.

الخاتمة والتّناج:

صفوة القول وما يمكن ملاحظته من خلال بنية الأماكن في رواية الكافية والوشام للروائي محمد مفلح، أنّ هذا البناء لم يكن مجرّدا، بل نجده متداخلا مع بقية المكونات السردية (الشخصية الروائية، الحدث الروائي، اللغة الروائية، الأزمنة الروائية). فالروائي محمد مفلح نجده قد نحا منحى الرواية الحديثة.

كما نجد أنّ الروائي مفلح قد عنون روايته بـ الكافية والوشام، ونعلم جيّدا أنّ للعنوان أهمية بالغة، فبعضهم يرى في العنوان النصّ الموازي، فبالرغم من أنّه عنصر أوّلّي موضع خارج النصّ الروائي، إلّا أنّ أهميته لا تتحقّق إلّا بمقدار ما يدلّ على محتوى نصّ الرواية (الكافية والوشام)، فنجد فيه الإيحاء المباشر على أنّ المحكي سيكون مكانا، فهو يحقّق جالبية النصّ الروائي لمحمد مفلح، بالتساق المتكامل بين العنوان، وبنية المكان والحكاية والحكي. فالكافية كما ذكرنا سابقا هي اسم للمؤسسة التي كان يعمل بها أحمد معاليش زوج فتيحة بنت الوشام، وهذا المكان نجده رئيسيا في الرواية، وقد ذكره الروائي محمد مفلح في كلّ أقسام روايته. وهذه بعض التّناج التي توصّلنا إليها من خلال بحثنا:

- استمدّ الروائي محمد مفلّاح عناصره المكانيّة من واقعه، فنجد مدن كغليزان، زمّورة وغيرها من الأماكن المسماة بتسميّة واقعيّة. كما أنّه اعتمد على بعض الأماكن التي زارها أو مكث فيها ولو لمدة قصيرة كوهّران، مستغانم، والجزائر العاصمة.
- لم يكن المكان في رواية " الكافية والوشام " مجرّد إطار تجري فيه الأحداث، وإنّما عبّر عن ثقافات مختلفة وواقع مختلف.
- استخدم الروائي محمد مفلّاح الوصف في الأمكنة وهذا حتّى تتحدّد معالم المكان وتنتضح فتُحدّث مصداقيّة لدى القارئ.
- عدّد الروائي في أنواع الأمكنة المفتوحة والمنغلقة منها، وذلك لكثرة الأحداث والتي استوجبت شخصيّات كثيرة.
- عبّر الروائي محمد مفلّاح بـ (المدينة) عن بلد الجزائر عامّة، وذلك بسبب المعاناة التي عاشها الشعب الجزائريّ في فترة ما بعد أحداث أكتوبر 1988.
- عند قراءتك رواية الكافية والوشام تجد نفسك وكأنّك تعيش اللحظة في المكان نفسه ألا وهو الجزائر، وكأنّ الروائي محمد مفلّاح يبني رواياته على التنبؤ. فلو أسقطنا أحداث هذه الرواية على الواقع المعيش لوجدناه نفسه في الجزائر وكلّ البلاد العربيّة.
- الروائي جعل نهاية روايته مفتوحة ونأمل ألا تكون نهاية واقعنا كذلك، فبالأحداث وبقية العناصر تضيق أو تتسع المدينة.
- قد ركّز الروائي في الكافية والوشام على فيلا التّوّارة ومؤسسة الكافية، لأنّها تمثّلان مركزا للأحداث.
- كشف المكان عن الاتجاه الواقعي للروائي محمد مفلّاح، وأسهم في تقديم الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة في تلك الفترة.
- وفي الأخير نرجو أن تنال روايات محمد مفلّاح الجديرة بالقراءة والدراسة اهتماما وتشجيعا، لخدمة الرواية الجزائرية الحديثة والمعاصرة خاصّة والأدب العربي عامّة.

هوامش:

¹ مرشد أحمد، 2005، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، ط1، دار فارس للنشر والتوزيع، ص: 129.

² عبد العالي بشير، 2003، تحليل الخطاب السردي والشعري، د ط، دار الغرب للنشر والتوزيع، ص: 33.

³ عثمان بدري، 2007، وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ دراسة تطبيقية، الرغاية، الجزائر، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعيّة ص: 91.

- 4 محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، 2008، جاليات التشكيل الروائي، ط1، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص: 230.
- 5 عبد العالي بشير، تحليل الخطاب السردى والشعري، ص: 64.
- 6 عبد المالك مرتاض، 1988، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، د ط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص: 121.
- 7 فتحة كحلوش، 2007، بلاغة المكان - قراءة في مكانية النص الشعري-، لبنان، مؤسسة الانتشار العربي، ص: 18.
- 8 حميد الحميداني، 2000، بنية النص السردى من منظور التقاد الأدبي، ط3، لبنان، المركز الثقافي العربي، ص: 62.
- 9 مرشد أحمد، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، ص: 132.
- 10 محمد عزام، 1996، فضاء النص الروائي مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، ط1، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع ص: 111.
- 11 محمد صابر عبيد، جاليات التشكيل الروائي، ص: 231.
- 12 محمد مفلح، 2015، في تجربة الكتابة، ط1، دار الكوثر، صفحة الغلاف الأخيرة.
- 13 <http://www.mohammedmeflah.com/index.html> الكاتب الروائي محمد مفلح.
- 14 <http://www.mohammedmeflah.com/index.html> الكاتب الروائي محمد مفلح.
- 15 محمد عزام، فضاء النص الروائي مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، ص: 115.
- 16 محمد مفلح، 2002، الكافية والوشام، ط1، الجزائر، دار هومة، ص: 3.
- 17 المصدر نفسه، ص: 3.
- 18 المصدر نفسه، ص: 6.
- 19 المصدر نفسه، ص: 8.
- 20 المصدر نفسه، ص: 31.
- 21 المصدر نفسه، ص: 83.
- 22 المصدر نفسه، ص: 84.
- 23 المصدر نفسه، ص: 85.
- 24 المصدر نفسه، ص: 92.
- 25 المصدر نفسه، ص: 109.
- 26 المصدر نفسه، ص: 121.
- 27 المصدر نفسه، ص: 126-127.

قائمة المراجع:

1. حميد الحميداني، 2000، بنية النص السردى من منظور التقاد الأدبي، ط3، لبنان، المركز الثقافي العربي.
2. عبد العالي بشير، 2003، تحليل الخطاب السردى والشعري، د ط، دار الغرب للنشر والتوزيع.
3. عبد المالك مرتاض، 1988، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، د ط، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

4. عثمان بدري، 2007، وظيفة اللغة في الخطاب الروائي الواقعي عند نجيب محفوظ دراسة تطبيقية، الزغاية، الجزائر، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
5. فتيحة كحلوش، 2007، بلاغة المكان - قراءة في مكاتبة النص الشعري-، لبنان، مؤسسة الانتشار العربي.
6. محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، 2008، جاليتات التشكيل الروائي، ط1، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع.
7. محمد عزّام، 1996، فضاء النص الروائي مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، ط1، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع.
8. محمد مفلّاح، 2002، الكافية والوشام، ط1، الجزائر، دار هومة.
9. محمد مفلّاح، 2015، في تجربة الكتابة، ط1، دار الكوثر.
10. مرشد أحمد، 2005، البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، ط1، دار فارس للنشر والتوزيع.